

## الحملة الإفريقية على إنطاكية، والدروس المستفادة

صالح درادكه\*

### ملخص

كان سقوط إنطاكية 1097 ميلادي في أيدي الصليبيين مفاجأة في الغرب والشرق، وذلك لمناعتها، إذ تحيط بها الأسوار العالية والجبال الشاهقة والأحواض المائية، كما أن السلاجقة في سورية والجزيرة كانوا أكثر عددا وعدة.

يهدف هذا البحث إلى دراسة هذا الحدث التاريخي من خلال المصادر الأولية العربية والأجنبية محاولا توضيح مواقف الأطراف الكثيرة المشاركة في هذا الصراع على إنطاكية ذات الموقع المنيع، والأهمية البالغة في العالمين المسيحي والإسلامي.

لقد بين الباحث الأسباب والعوامل التي ساعدت الصليبيين في الاستيلاء على هذه المدينة الإستراتيجية، وبعد ذلك بين أسباب فشل الجموع السلجوقية في استعادة المدينة، ووجد أن الانقسام والعداء المستحكم بين الحكام السلاجقة بالإضافة إلى سوء العلاقة بين السلاجقة والدولة الفاطمية التي كانت تزاحم للسيطرة على بلاد الشام، كانت هذه من أهم أسباب هذا الفشل.

لقد تكررت مثل هذه الحالة في التاريخ العربي والإسلامي، و كأن المسلمين والعرب لم يقرأوا هذه الدروس التاريخية.

### المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى إبراز واحد من الدروس التاريخية الهامة في التاريخ العربي الإسلامي، كنموذج للدروس البليغة التي مرت في تاريخنا، وعلى الرغم من بلاغتها، لم يتعظ بها أولي الأمر، وربما لم يحسن قراءتها احد، وتمر الأحداث المشابهة وكأن شئنا لم يكن، وهذا النموذج الذي يتناوله البحث هو الحملة الفرنجية على إنطاكية سنة 491هـ / 1097م، كحلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب.

اعتاد المؤرخون أن يبدأوا الحديث عن الحروب الصليبية، بالإشارة إلى أحوال منطقة الشرق الأوسط في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، غير أن هذا المدخل لا يمثل بداية الصراع بين الشرق والغرب، إذ من فك هذا الصراع محتدما منذ قيام الإمبراطوريات الأولى التي قامت

\* جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2009.

قسم التاريخ، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

حول البحر الأبيض المتوسط، ومن أقدم هذه الصراعات ما حدث بين الإمبراطورية الفينيقية العربية ممثلة بقرطاج وبين روما التي كانت تمثل إمبراطورية أوروبية ناشئة، وذلك قبل أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

من المعروف أن الفينيقيين انطلقوا من عاصمتهم صور اللبنانية حالياً، وبسطوا نفوذهم غرباً على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط سلمياً، واستطاع الفينيقيون أن يقيموا لهم مراكز في سواحل أفريقيا الشمالية، وسواحل أوروبا الجنوبية، كمدينة قرطاج التي لا تزال خرائطها قائمة قرب مدينة تونس حتى الآن.

يطيب للبعض أن يعتبر قرطاج وريثة أمها صور في العظمة والغني والطموح، فقد ذكر أنهم بلغوا في تجوالهم رأس الرجاء الصالح وسيرايليون جنوباً، ووصلوا إلى إسبانيا وفرنسا وانجلترا شمالاً، وفي قول دعم بالأثار، إنهم وصلوا إلى القارة الأميركية قبل كولومبس بألاف السنين<sup>(1)</sup>.

لقد كان القرطاجيون من سادة التجارة العالمية، كما كانوا رواداً في النظم الإدارية والاقتصادية، كما كانوا يدركون أهمية السلام في نجاح مشاريعهم، لذلك بادروا إلى عقد اتفاقيات سلام وعدم اعتداء مع الممالك المجاورة ومنها روما.

بعد أن شبت روما عن الطوق، أخذت تسعى إلى التوسع والهيمنة على البحر المتوسط، ولهذا اصطدمت مع قرطاج في حروب طويلة ومريرة، عرفت في التاريخ (بالحروب البونية) كان شعار قادة روما فيها: "يجب أن تدمر قرطاج"، انتهت هذه الحروب بتدمير قرطاج وإزالتها من الوجود بطريقة مفعمة بالحقد إلى أقصى حد، قال "بيار هوباك" عن مصرع<sup>(2)</sup> قرطاجية: "أنها لجريمة غاشمة سببت ضياع ألفي سنة من تاريخ الإنسانية"<sup>(3)</sup> وذكر أن لويد في كتابه "دمروا قرطاجية": ماتت عبقرية بموت مدينة قرطاج التي انبثقت منها تلك العبقرية، فالدولة التي كانت يوماً ما، علة التقدم التجاري للعالم الغربي بشكل لا يبارى، وقد حصلت لها الطامة الكبرى قبل انفجار أول قنبلة ذرية بحوالي 2095 سنة"<sup>(4)</sup>.

بعد نكبة العرب بقرطاج، تتالت النكبات التي حلت بمراكز الحضارة الإنسانية، وحرمت هذه النكبات الأجيال من بعدها، من التمتع بإبداعات العرب في مجال الفكر والعلم والعمل، فمن نكبة قرطاج إلى نكبة بغداد (1258/656م) على يد التتار، إلى نكبة قرطبه وغيرها من المدن الأندلسية الزاهرة بالحضارة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، امتداداً إلى حال العرب للوقت الراهن. ومما يجدر ذكره أن في هذه الصراعات بل النكبات كثيراً من الدروس التي لم يستفد منها أهلها، ورغم توالي النكبات على بلاد العرب، فلا يزال العرب يصمون أذانهم دون سماع درس من هذه الدروس.

وقد اخترت نكبة إنطاكية (1097/491) كنموذج لهذه النكبات التي لم يستفد العرب من دروسها شيئاً.

### لماذا هذا الاختيار؟

فقد رأيت أن أصلح نموذج يصور إشكالية الحالة التاريخية المتكررة في التاريخ العربي، هي حالة إنطاكية في مواجهة الغزو الفرنجي، وحالة العرب والمسلمين تجاه هذا الغزو، حيث تغلبت الأنانية وحب السلطان على الوطن والعقيدة، وبالتالي فإن هذا الحدث التاريخي غني بدروسه، وجاء اختيار إنطاكية لتوسطها في الزمان والمكان، فأحداثها جاءت لتتوسط أحداث التاريخ العربي، فقد سبقت أحداثها أحداث مماثلة، كما تلت حوادثها أحداث مماثلة كذلك، منذ نكبة قرطاج 146 ق.م، وحتى سقوط بغداد 2003م.

ولعل أهمية إنطاكية الإستراتيجية بالإضافة إلى أهميتها الدينية في المسيحية، إحدى أسباب هذا الاختيار.

### أهمية إنطاكية:

احتلت إنطاكية مكانة هامة في الخطط العسكرية الأولى لغزو الفرنجة، وعول قادة الغزو على سقوطها نتاج عزيمة وكبيرة، ومع أن الفرنجة استولوا أولاً على نيقية من بلاد الإسلام، إلا أن هذا الاستيلاء لم يعتبر ذا بال مقارنة بالاستيلاء على إنطاكية.

ونظراً لهذه الأهمية لإنطاكية فقد كان تأثير سقوطها مؤلماً وواسعاً في الأوساط الإسلامية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، ويكفي أنه كان مدعاة لتشكيل أول تحالف للممالك والإمارات الإسلامية لرد العدوان الفرنجي وتخليص إنطاكية من الاحتلال.

وفي العالم المسيحي تبوأ إنطاكية المرتبة الثالثة، إن لم تكن الثانية بعد روما ذاتها، وهي في نظرهم تقع على رأس الجميع، ولها الصدارة على كل منطقة الشرق، وكانت تدعى في القديم "ريبلاتا"<sup>(5)</sup>.

"وقد أنزلت الكراسي الرئيسية في المسيحية منذ أيام الرسل الأولى في العواصم الثلاث لعالم البحر المتوسط: روما والإسكندرية وإنطاكية... ولأن القسطنطينية هي روما الجديدة، أسندت الأسقفية لأسقف روما القديم، بيد أن بطريقي الإسكندرية وإنطاكية ومن بعدهما زميلهما بطريق بيت المقدس، الذي أنشئ منصبه فيما بعد، كانوا يتلون في المرتبة"<sup>(6)</sup>.

تعزو الروايات التاريخية بناء هذه المدينة إلى احد خلفاء الإسكندر المقدوني المدعو "انطيوخس أو انتيوكس" في المصادر اللاتينية "وانطيغونيا" في المصادر الإسلامية<sup>(7)</sup>. وكما هو واضح فان اسم المدينة نسب إلى مؤسسها الأول انطيخوس.

وقد اعتبر المسلمون هذه المدينة قسبة العواصم من الثغور الشامية، وقيل أنها من أعيان البلاد وأمهاها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعدوية الماء، وكثرة الفواكه وسعة الخير<sup>(8)</sup>. وهكذا فإنطاكية محط اهتمام كلا الطرفين المسيحي والإسلامي.

ومما يجدر ذكره أن العرب فتحوا هذه المدينة سنة 15هـ، في أعقاب معركة اليرموك 15هـ/636م وتحرير سورية من النفوذ الروماني. بقيت المدينة تحت الإدارة الإسلامية المباشرة حتى عام 355هـ/965م ثم تناوب المسلمون والروم السيطرة على إدارتها، وفي العهد السلجوقي كانت هذه الإدارة تتبع حاكم حلب<sup>(9)</sup>. ولعل من أسباب عظمة إنطاكية في أعين المسيحيين، وجود كنيسة زائعة الصيت، بنيت تمجيذا لذكرى بطرس الرسول، الذي أصبح أسقفا فيها بعد أن استلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة، ومفاتيح مملكة السماوات<sup>(10)</sup>. ويبدو أن موقع المدينة الإستراتيجي وتحصيناتها المنيع، جعل كلا الطرفين المسيحي والإسلامي، ينظران إليها كصمام أمان، يقي كل طرف عدوان الطرف الآخر.

تصف المصادر المعاصرة للحملة الفرنجية على إنطاكية أن المدينة كانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصينا، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية، وأنه لا يمكن أن يأخذها عدومن الخارج، إذا ما توافرت فيها الإمدادات والغذاء، وإذا ما عقد سكانها العزم على الدفاع عنها<sup>(11)</sup>.

كان غالبية سكان إنطاكية غداة الحملة الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري /الهادي عشر الميلادي، من السريان والأرمن، وكان للمدينة حامية تركية غير أن السكان كانوا موزعين بين مختلف الكنائس المسيحية<sup>(12)</sup>.

### الشام في ظل السلاجقة:

كان ملكشاه السلجوقي قد وزع فتوحاته بين أولاد أخيه وأتباعه اعتقادا منه أنهم كلما تذكروا مآثره عليهم اشتد ارتباطهم به، فكانت نيقية وما جاورها من ولايات من نصيب قلع أرسلان، وكان في نزاع دائم مع الإمبراطورية البيزنطية، وجعل دمشق وما حولها لابن أخيه دقاق، وكان في نزاع دائم مع الدولة الفاطمية في مصر، أما التابع الآخر، فهو آق سنقر، وهو والد عماد الدين زنكي، وأغدق ملكشاه فيض كرمه على ياغي سيان فجعل إنطاكية من نصيبه<sup>(13)</sup>.

ملكشاه هذا هو أعظم سلاطين السلاجقة، وهو ابن السلطان ألب ارسلان بطل معركة ملاذكرت 463هـ/1071م ضد الروم (البيزنطيين)، والتي كان من نتائجها استنجد الإمبراطور البيزنطي بالبابا وأوروبا لدرء الخطر السلجوقي الإسلامي عن بيزنطية وأوروبا<sup>(14)</sup>. وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين هم: بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود عند وفاة والده طفلاً، وبتدبير من والدته تركان خاتون زوجة ملكشاه بويغ محمود بالسلطنة في بغداد، بينما كان بركياروق أكبر أولاد ملكشاه في أصفهان، وسيرت تركان خاتون قوة للتخلص من بركياروق، إلا أن مساعيها لم تفجح، وبويغ بركياروق بالسلطنة<sup>(15)</sup>.

وكان كربوقا (الذي يظهر اسمه لأول مره) قائد حملة تركان خاتون إلى أصفهان، ومنذ هذه الحادثة اخذ اسمه يتردد في الحوادث والصراعات بين أبناء ملكشاه، منتقلاً من ولاء سيد إلى ولاء سيد آخر، ولعله كان يتمتع بمزايا عسكرية وسياسية جعلت المتنافسين يسعون إلى كسبه كل إلى صفة.

كان آخر حكام إنطاكية من قبل الإمبراطورية البيزنطية: فيلاريتوس الارمني حتى انتزعها منه، زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قتلмыш في فبراير سنة 1085م، وعندما تغلب تنش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا، سنة 1086م، صارت إنطاكية من أملاك تنش، حتى اختار أخوه ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله من التركمان، وهو ياغي سيان سنة 1087م، على إن يكون تابعاً لرضوان بن تنش ملك حلب، ولكن الحروب والخلافات التي حصلت بين رضوان ملك حلب وأخيه دقاق ملك دمشق، جعلت ياغي سيان يقف إلى جانب دقاق، ومع ذلك لم ينجح في التغلب على رضوان ملك حلب<sup>(16)</sup>.

ويمكن وصف حالة الدولة السلجوقية غداة خروج الصليبيين من أراضي الدولة البيزنطية نحو إنطاكية، بأنها حالة صراع على العرش وحروب بين الأخوة والأتباع من أبناء السلطان ملكشاه، فالكل طامع بالكل وتكاد الثقة تنعدم حتى بين الحلفاء من حكام الدولة السلجوقية، يضاف إلى ذلك العلاقات الحربية مع الدولة الفاطمية في مصر، ولا شك أن الانشقاقات بين حاكم إنطاكية، وبين رضوان الحلبي، وبين سلاجقة سوريا، أضعفت كثيراً جهود المسلمين في مواجهة الغزو الفرنجي.

### الحملة الفرنجية والصراع على إنطاكية:

أما الجبهة الفرنجية (الصليبية) فكانت تتكون من أخطاط شتى من سكان أوروبا الغربية، وكانت هذه الأخطاط متباينة الأهداف، فمن رغبة في النهب والسلب وجمع المال، إلى دوافع دينية، أو انقياد للسلطة الأمراء والملوك، وكان قادتهم الكبار لا يختلفون عن العامة في الأهداف، وتثور بينهم أحياناً رياح الحسد والتنافس على الرياسة، ومع ذلك دلت أعمالهم على قدر كبير من الحنكة

والشجاعة، ومما زاد في أعباء قادة الحملة الفرنجية ريبة الإمبراطور البيزنطي بهم وبأطماعهم، مما جعله يتعامل معهم بحبيطة وحذر، وأخذ عليهم ميثاقاً، بأن يسلموه كل مدينة أو بلدة يستولون عليها من المسلمين.

وقد برز في هذه الحملة التي اجتاحت شمال سورية المتاخمة للدولة البيزنطية، قادة على قدر من الدهاء من أمثال: تانكرد، وريمون الصنجيلي، وبلدوين، وبوهيمند، وجودفري، وفلاندرز وغيرهم.

وتعتبر الحملة الفرنجية الأولى عمل فرنسي بالدرجة الأولى وإن خالطت الفرنسيين عناصر أخرى. كان لكل قائد من هؤلاء فرسانه ومقاتلوه الذين خرجوا من بلاده، وهم في كل الأحوال أتباعه ويأتمرون بأمره.

في هذا التشكيل أطبق الفرنجة على مدينة إنطاكية، بعد أن أحرزوا نجاحات في الاستيلاء على المدن والمواقع الحدودية، مثل نيقية، وحصون الدروب، والبارة، وفامية وكفر طاب ونواحيها<sup>(17)</sup>.

كان كل قائد من القادة الذين ذكرناهم يطمح أن تكون إنطاكية من نصيبه، فكان بوهيمند قد ورث كراهية بيزنطة من والده، وأخذ يدبر أمر الفكك من التبعية للإمبراطور البيزنطي ويحيك المؤامرات ليجد الوسائل التي تسوغ له حكم إنطاكية وعدم تسليمها للإمبراطور البيزنطي، باتفاق قادة الحملة الصليبية.

لم يكن حصار الفرنجة لإنطاكية أمراً سهلاً، وإنما كان مغامرة ومجازفة محفوفة المخاطر، بسبب حصانة المدينة وطبيعة البلاد المحيطة بها.

يصف لنا مؤلف كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، حال الفرنجة خلال الحصار بقوله: "وأصبحنا لا نكاد نجرؤ على مغادرة المعسكر، وعدنا لا نجد في منطقة المسيحيين شيئاً مما يمكن أن نتبلغ به، زد على ذلك، أنه لم يجسر أحد على اقتحام أرض المسلمين، إن لم يكن في النفر العديد والحشد الكثيف.." <sup>(18)</sup>.

ولعل هذا الحال الذي سبق وصفه ناتج عن الهجمات المفاجئة التي كان يتعرض لها جنود الفرنجة من الحاميات التركية من داخل أنطاكية ومن خارجها التي تستعمل أسلوب الكر والفر مستفيدة من معرفتها بطبيعة المنطقة<sup>(19)</sup>.

كان القادة الفرنجة في حالة تنافس وبخاصة بين بلدوين الفرنسي وبوهيمند الترانتي والنورماندي<sup>(20)</sup> الذي كان يتباطأ في الاستيلاء على إنطاكية، حتى يستكمل خيوط التآمر والخداع لتكون أنطاكية من نصيبه إذا ما تم الاستيلاء عليها.

إن هذا الوضع الناتج عن نفاذ قوت المحاصرين، وضمود المدينة، وقوة أبراجها، واستبسال حامياتها، بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي أشرنا إلى بعضها، جعلت الفوضى والمجاعة تدب في أوساط القوات الفرنجية، مما جعل الجند يفرون من المواجهات، لم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون، اختفيا فجأة، فجد القائد تنكرد في أثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيمند الذي ويخهما لفرارهما، وأخذ عليهما عهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس<sup>(21)</sup>.

وهنا قد يتساءل الرجل العاقل: (أي الحاليين كانت أحسن من غيرها، وأيها كانت مبعث فرح: حالة الجيش المحاصر أم أولئك الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا محاصرين؟)"<sup>(22)</sup>.

وإذا كان الحال هكذا، فكيف عجز السلاجقة عن القضاء على هذه الحملة، ثم كيف انقلبت الأحوال وتمكن الفرنجة من احتلال أنطاكية؟!

إن في ما حدث لإنطاكية يفسر لنا كثيراً من حالات الفشل التي واجهت العالم الإسلامي حتى يومنا هذا، وكأن درس إنطاكية لم يقرأه أحد!! تفيد المصادر العربية أن ياغي سيان أخرج النصارى من إنطاكية عندما حاصرته جيوش الفرنجة، فانضم هؤلاء إلى معسكر الأعداء<sup>(23)</sup>، وذكرت مصادر عربية أيضاً أن الأفضل بن بدر الجمالي حاكم مصر الفاطمي، استغل الهجوم الفرنجي على بلاد الشام، واحتل بيت المقدس وأرسل سفارة إلى قادة الحملة الفرنجية أثناء حصارهم لإنطاكية بقصد التعاون معهم ضد السلاجقة، وتقاسم المغانم<sup>(24)</sup>، وأشار بعض هذه المصادر إلى حدوث عصيان بعض رعايا ياغي سيان عند قدوم الفرنجة نحو إنطاكية وطلبوا المدد من الفرنجة، وذكرت أن "هذا كله لقبح سيرة ياغي سيان وظلمه في بلاده"<sup>(25)</sup>. تضيف بعض الروايات أن تباطؤ النجدة التي قادها كربوقا أمير الموصل والمكونة من ملوك وأمراء بلاد الشام، وانشغال هؤلاء بمحاصرة الرها التي استولت عليها القوات الفرنجية، خارج أنطاكية، منح الفرصة المناسبة لقادة الحملة الفرنجية لإصلاح أحوالهم، واتخاذ الاستعدادات اللازمة، مما مكّنهم من الاستيلاء على إنطاكية<sup>(26)</sup>.

وإذا ما جمعنا هذه الأسباب إلى بعضها، نجدها تقدم الصورة العربية لأسباب سقوط إنطاكية بيد الفرنجة، وأبرزها أن الشعوب الشرقية كان يجمع بينها على الرغم من تنوعها الشديد، عدم تمكنها من إدراك الجدة في الحملة الفرنجية.

أما المصادر اللاتينية فلها وجهة نظر مختلفة عن أسباب سقوط إنطاكية بأيدي الفرنجة، فتقول هذه المصادر أن: "الأرمن والسريان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة"<sup>(27)</sup>.

تتفق المصادر العربية واللاتينية على أن من أهم أسباب سقوط إنطاكية بيد الفرنجة إنما تعود إلى أحد حماة أحد أبراج المدينة ويدعى "فيروز" أو "الزراد"، الذي اتفق مع بوهيمند الذي ألت إليه قيادة الحصار على المدينة، على أن يسلم المدينة إلى بوهيمند فقط، وأبقى بوهيمند علاقته مع فيروز سرية حتى تمكن من أخذ ميثاق من قادة الفرنجة على أن تكون إنطاكية من نصيب من تفتح على يده، وهكذا رتب أموره مع فيروز، وفي الوقت المحدد، سمح بدخول جند الفرنجة من قبله، مما سمح باحتلال المدينة مع ذلك بقيت القلعة الرئيسية حيث يوجد ياغي سيان بيد الحامية التركية"<sup>(28)</sup>.

لقد استمر حصار الصليبيين لإنطاكية من 21 أكتوبر سنة 1097 حتى 3 يونيو 1098، أي حوالي سبعة أشهر في بعض الروايات وفي روايات أخرى تزيد مدة الحصار أو تنقص قليلاً<sup>(29)</sup>.

ارتكب الصليبيون في إنطاكية أعمالاً وحشية ضد المسلمين، وصفها الشارترى المرافق للحملة والمشارك فيها بقوله: "... دب رعب هائل في نفوس الأتراك، ورأوا الفرنجة يقتحمون الشوارع بسيوف مشرعة، ويقتلون الناس بوحشية، أصابتهم الرهبة، وأمعنوا في الفرار لا يلوون على شيء. وهرب من الأتراك من استطاع أن يصل إلى القلعة على جرف الجبل"<sup>(30)</sup>. أما ابن الأثير فيقول، "أن الفرنج دخلوا البلد من الباب، ونهبوه، وقتلوا من فيه من المسلمين"<sup>(31)</sup>، ويذكر ابن الجوزي، أنه قتل وسبى من أهل إنطاكية، من الرجال والنساء والأطفال ما لا يدركه حصر"<sup>(32)</sup>.

كان ياغي سيان قد استنجد بالأمرء والحكام المسلمين، واستصرخهم لمواجهة الخطر الذي يتهدد بلده، غير أن المدينة سقطت بيد الفرنج قبل وصول النجيدات.

هرب ياغي سيان من المدينة وخلف ولده شمس الدولة في القلعة مع الحامية، ولعل هربه كان بقصد استعجال نجيدات المسلمين إلا أن جواده كبا به في الطريق وهاجمه الأرمن وقتلوه.

توضح المصادر اللاتينية دور الإيمان وإخلاص الرب لهم وحصول الخوارق والمعجزات، ومن ثم شجاعة الجند الفرنج وفنونهم في القتال مما جعل الفرنج القلة أن ينتصروا على المسلمين الكثرة، رغم قساوة الظروف التي أحاطت بالفرنجة أثناء الحصار<sup>(33)</sup>. كان لسقوط إنطاكية وقع



شديد ومتباين، فالعالم المسيحي أعلن فرحته واستبشر بتوالي الانتصارات، وتحفز جند الفرنجة لمواصلة السير إلى بيت المقدس<sup>(34)</sup>.

أما وقع الحدث في الأوساط الإسلامية فكان مؤلماً، ومنذراً بالخطر، مما استدعى أمراء الشام والجزيرة إلى الجد في مواجهة هذا الخطر، وهكذا استجاب السلطان بركياروق وندب قوام الدولة كربوقا ليكون قائداً للحملة لتخليص إنطاكية من الفرنجة، فجمع العساكر وسار من الموصل إلى الشام وأقام بمرج دابق، حيث اجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب<sup>(35)</sup>. ومن الذين لبوا النداء واجتمعوا إلى كربوقا، دقاق بن تتش ملك دمشق، وطفكتين أتاك الملك دقاق، وجناح الدولة، صاحب حمص، وأرسلان تاش، صاحب سنجار، وسقمان بن ارتق، صاحب ماردين وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم<sup>(36)</sup>.

يصف ابن القلانسي جيوش الشام وحصارها للفرنجة في إنطاكية فيقول: "فتجمعت عساكر الشام في العدد الذي لا يدرکه حصر ولا حزر، وقصدوا عمل إنطاكية للإيقاع بعسكر الإفرنج، فحصرهم حتى عدم القوت عندهم، حتى أكلوا الميتة ثم زحفوا وهم في غاية الضعف إلى عساكر الإسلام، وهم في غاية من القوة والكثرة، فكسروا المسلمين، وفرقوا جموعهم، وانهمز أصحاب الجرد سبق، ووقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالين في الرغبة في الجهاد، وحماية المسلمين كان ذلك يوم الثلاثاء السادس من رجب في السنة<sup>(37)</sup> (إحدى وتسعين وأربعماية).

تصف المصادر اللاتينية حال الفرنجة في إنطاكية وهم تحت الحصار أسوأ وصف، فيقول صاحب الجستا: "بلغ من ضيق الحصار علينا أن اضطرنا لأكل خيولنا وحميرنا"<sup>(38)</sup> ويقول فوشيه الشارترى عن الفرنجة وهم تحت الحصار "لم يستطيعوا أن يطيقوا هذا العذاب أكثر من ذلك، إذ لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهمهم وأنهك جيادهم"<sup>(39)</sup>.

كان وقع الأخبار بقدوم الأمير كربوقا على رأس جيش كثيف، أليماً في نفوس المحاصرين<sup>(40)</sup>، ويبدو أن سمعة كربوقا وشدته، وحجم الجيش الذي يقوده هما أسباب هذا الذعر الذي أصاب الأوساط الفرنجية.

وإذا كانت هذه حال الفرنجة تحت الحصار في إنطاكية، وهذه حال الجموع الإسلامية من ترك وتركمان وفرس وعرب، فما الذي قلب الموازين وجعل القلة المحاصرة واليائسة، أن تنتصر على الكثرة المهاجمة، الكثيرة العدد والعتاد؟!

تجيب المصادر اللاتينية على هذا التساؤل بأن فضل ذلك يعود للخوارق أي لمساعدة الرب لشعبه من النصارى، لهذا قال الشارترى يقول: "في تلك الأثناء ظهر الرب، غير ناس عباده، لكثير من الناس، وقد كرروا ذكر هذه الحقيقة، وطمأنهم ووعدهم أنهم سيفرحون بالنصر في القريب... وأمرهم الرب بعدم الهرب: "لا تهرب بل عد... لأنني أنا الذي أكلمك أنا الرب"<sup>(41)</sup>. وتذكر بعض المصادر اللاتينية نصائح وتوسلات لأم كربوقا، التي قدمت من حلب، لمقابلة ولدها وتثنيه عن مقاتلة الفرنجة "أستحلفك يا بني بجميع الأرباب، وبحق طبيعتك السمحاء أن ترجع عن قتال الفرنجة... أتوسل إليك يا ولدي الحبيب أن تستمع إلى نصائحي، وألا تحاول مطلقا التفكير في قتال الأمة المسيحية، أو الشروع في منازلها"<sup>(42)</sup>. وتوحي صياغة الحوار بين الأم ولدها وكأنها كانت تؤمن بالديانة النصرانية، وحتمية انتصار النصرانية: "يا بني العزيز، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة سنة، أنه جاء في كتابنا وفي كتابات الوثنيين أن الأمة المسيحية ستهاجمنا، وسيعقد لها النصر علينا في كل ناحية، وأنها ستسود الوثنيين.."<sup>(43)</sup>، ويلاحظ تشابه الوصف بين ما ورد على لسان الأم وما أورده مؤرخو الحملة الصليبية في وصف الجيوش الإسلامية المُحاصرة بالوثنية، كما يدل على ضعف الإيمان في الجبهة التركية، أن أحمد بن مروان الذي سلمه كربوقا، قلعة إنطاكية من ابن ياغي سيان، سلم القلعة لبوهيمند، واعتنق المسيحية وانضم لجيوش الفرنجة بعد هزيمة كربوقا<sup>(44)</sup>. لم تذكر المصادر العربية تدخل أم كربوقا في حصار إنطاكية، ولكن يستنتج من مجمل الروايات أن كربوقا كان متقلبا في ولائه، مستبداً في إمرته، ومستهيئاً بخصمه، معتمداً على كثرة جيوشه، وكأنه لم يستوعب الدرس الذي لم تمض عليه مدة طويلة، حيث تمكن الفرنجة وهم في حال من الضعف من الاستيلاء على أنطاكية. وإذا كان حصار الفرنجة لإنطاكية قد استغرق سبعة شهور ونيف فإن حصار الجيوش التي قادها كربوقا لم يستمر إلا أياماً (من 5 يونيو إلى 28 يونيو 1098م)<sup>(45)</sup>.

تذكر بعض المصادر العربية أن العلاقات بين الجموع المُحاصرة للفرنجة لم تكن على وفاق، فقد جرت بين الأتراك والعرب منافرة عادوا لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير من الملك رضوان ملك حلب، وتخوف بعض الأمراء من بعض"<sup>(46)</sup>.

وذكرت مصادر أخرى أن الفرنجة المحاصرين في إنطاكية أرسلوا وفادة إلى كربوقا، يعلنون فيها رغبتهم بالحصول على الأمان مقابل دفع الجزية، والخروج من إنطاكية، لكن كربوقا خاطبهم قائلاً: "لا تخرجون إلا بالسيف"<sup>(47)</sup>. مما أدى إلى ضياع هذه الفرصة، وإصرار الفرنجة على المقاومة حتى الموت.

كان الحصار شديداً، وكل الظروف مهيأة لانتصار المسلمين، فقد بلغ اليأس عند الفرنجة، أن كثيراً من زعمائهم، تسللوا وسط الظلام وأثروا الهرب والنجاة بأنفسهم، كما أن بعضهم فت في عضد الإمبراطور البيزنطي اليكسوس، فرجع بجيوشه بينما كان في منتصف الطريق قادماً لنجدة الجيوش الفرنسية المحاصرة، لأن الهاربين أخبروه بهلاك الفرنجة وسقوط إنطاكية بيد الأتراك.

لم يكن الأمر يحتاج لأكثر من استمرار الحصار لعدة أيام، حتى يهلك الفرنجة داخل إنطاكية. إن الذي حصل يستحق التأميم والاستدلال، لإزالة هذا الغموض، وحصول هذه المفاجعة بهذا الجيش العرمرم، الذي لن يكتب للمسلمين حشد مثله إلا على يد القائد صلاح الدين الأيوبي.

إن تكرار مثل هذه النتائج في بعض فترات التاريخ الإسلامي تجعل الباحث يتساءل، هل أن ضعف الإيمان، وغياب قوة العقيدة، هما السبب، أم عدم التجانس في الأهداف وفي الأعراف والولاءات هي المسؤولة عن هذه النتائج؟!، أم أن الخبرة العسكرية الفرنسية والتعبئة المسبقة لهذه الجموع ضد المسلمين هي السبب؟! وفي كل الأحوال جاء درس إنطاكية لينضاف إلى دروس كثيرة سبقته وأخرى لحقته، لتتكرر هزائم الأمة، وتكثر مآسيها.

### الدروس المستفادة:

- 1- إن الدرس الأول يتمثل في أن حالة التشرذم وانقسام الأمة إلى كيانات، هو من أهم الأسباب التي أدت وتؤدي إلى النكبات، كما هو واضح في خريطة الأمة العربية الإسلامية غداة الغزو الفرنسي في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وكذلك خريطة العالم العربي غداة الغزو الصهيوني والاستعمار الغربي للمشرق العربي.
- 2- إن انقسام الدولة الواحدة إلى وحدات سياسية يؤدي إلى نزاعات بينية، وصراعات وحروب داخلية، ويخلق نزاعات إقليمية وعرقية ومذهبية.
- 3- إن الدولة القطرية يصاحبها نزعة انفصالية عن الأمة، ويتيح المجال لحالة من النفاق والفساد تضعف معه المبادئ والقيم الأساسية الموروثة من تاريخ الأمة.
- 4- إن العرب والمسلمين لم يستخلصوا العبر من نكباتهم المتكررة، ودعت حالهم إلى الاعتماد على الغير، والاستكانة إلى واقعهم، وعدم الأخذ بأسباب النهوض التي أخذ بها غيرهم.
- 5- إن في العرب المسلمين، خاصية سلبية، أنهم في صراعهم مع بعضهم أشد نكاية بغيرهم، لا بل يتجاوزون كل حد، ويقدمون على التعاون مع العدو الأجنبي الطامع ببلادهم ضد إخوانهم من بني جلدتهم.

درادكه

فهل يعي العرب اليوم هذه الدروس، وقد أصبحت بلادهم مرتعاً لكل طامع، وهل يسمو الإنسان العربي عن أنانيته وفرديته، إلى حيث مصلحة الأمة في الوحدة والقوة؟  
أسأل الله أن يتحقق ذلك

## Franks Campaign to Antioch and the Lessons Learned

*Saleh Daradkeh, Department of History, Faculty of Arts, University of Jordan, Amman, Jordan.*

### Abstract

The fall of Antioch 1097 A.D in the hands of crusaders surprise the West and the East, for the reason of its vulnerability, as it's surrounded by high walls, high mountains and water basins. Also the Seljuk in Syria and the Peninsula of Lafrate Were more numerous and various.

This research aims to study this historic event through the primary Arab and foreign sources to clarify the positions of the many parties involved in this conflict with the Antioch site impregnable and its importance in the Christian and Islamic worlds.

The researcher clarifies reasons and factors that have helped crusaders in the acquisition of this strategic city, then the researcher clarified the reasons of Seljuk forces failure in restoring the city. Moreover, the researcher found that the severe enmity and hostility between the Seljuk rulers, in addition to the poor relationship between the Seljuk and Fatimid State, which was rushing to control the Levant. Thus, was one of the most important reasons for this failure.

This situation has been repeated in the Arab and Islamic history, seeing that they never learned from the historical lessons.

وقبل في 2008/6/29

قدم البحث للنشر في 2007/12/2

## الهوامش:

- (1) فيصل الحربي، قرطاج كيف ضاع التاريخ البشري، مجلة العصور الحديثة، العدد التاسع، مايو 2000، (142-154) ص144، وانظر المراجع المتعلقة بقرطاج في جريدة المصادر.
- (2) فيصل الحربي، المرجع السابق، ص 144.
- (3) المرجع نفسه ص 153.
- (4) المرجع نفسه، هذا التاريخ إلى زمن أن لويد، وحتى الآن فقد مضى على تدمير قرطاج 2151 سنة.
- (5) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج1، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، ص271.
- (6) استيفان رنسيومان، الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م، ص124-125.
- (7) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان "إنطاكية" دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج1، ص 266.
- (8) المرجع السابق.
- (9) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (555-630هـ) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر احمد الطليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة 1963م، ص6.
- (10) فوشية الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، 1990م؟، ص53.
- (11) انظر الشارترى، المرجع السابق، وياقوت الحموي، المرجع السابق، مؤلف مجهول (Gesta) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وعلق عليه: د.حسن حبشي، دار الفكر العربي، ص49. وانظر د.سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1976م، ص143.
- (12) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر - بيروت، م10، حوادث (491هـ) وانظر عاشور، المرجع السابق ص144، وانظر كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة احمد الشيخ، سينا للنشر، 1995م، ص100.
- (13) الرواندي، محمد بن علي بن سليمان، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية نقلة إلى العربية: د. إبراهيم أمين الشواربي، وعبد النعيم محمد حسنين، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، 1379هـ/1960م، ص203-206. وليم الصوري، المرجع السابق، ص277-278.

- (14) انظر ابن الأثير، الكامل 65/10-69. وعماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الشيخ الإمام الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1403هـ/1980م، ص40-44.
- (15) ابن الأثير، الكامل، 10/224-232.
- (16) انظر ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، ت660هـ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له: د. سهيل زكار، ج1، دار الكتاب العربي، ط1، 1418هـ/1997م، ص245-344. وانظر عاشور المرجع السابق، ص190.
- (17) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي 713-874هـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت، ص146، وانظر وليم الصوري، مرجع سابق، 193/1 وما بعدها.
- (18) ترجم الكتاب وقدم له وعلق عليه: الدكتور حسن حبشي، دار الفكر العربي ويعرف هذا الكتاب بـ: (Gesta)، ص54-55.
- (19) انظر التفاصيل عند وليم الصوري، المرجع السابق 284/1 وما بعدها.
- (20) انظر كلودكاهن، المرجع السابق، ص93-94. والترانتي، نسبة إلى تورنتو، وكان معظم جنده من النورمانديين.
- (21) الجستا، مرجع سابق، ص55. د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ج1، ص195.
- (22) وليم الصوري، المرجع السابق، 291/1.
- (23) انظر ابن الأثير، الكامل 10/274، وسبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي 581-654هـ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج1، تحقيق ودراسة د. مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة 1407هـ/1987م، ص279.
- (24) وليم الصوري، الحروب الصليبية 204/1، وانظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص198، وانظر رسالة العباس وزير الخليفة الفاطمي إلى الفرنجة (البيازنة)، عند كلودكاهن، المرجع السابق، ص291.
- (25) ابن العديم، زبدة الحلب، ص345-346.
- (26) انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص203.

- (27) سعيد عاشور (نقلًا عن Guillaume de Tyre, vol.1, p.174-175) ولم أعثر على هذا النص في النسخة المترجمة إلى العربية والمستخدم في هذا البحث.
- (28) ابن الأثير، الكامل 374/10، ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي 555-470هـ/1077-1160م، تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط1، 1403هـ/1983م، ص220، ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (812-874هـ)، ج5، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ص146.
- وليم الصوري، المرجع السابق 335-334/1، الشارترى، المرجع السابق، ص57-58. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة (Gesta)، ص64 وما بعدها.
- (29) انظر س. رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ج1، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1981م، ص1/214 وما بعدها، وانظر Gesta، ص49.
- جاء في بعض المصادر تواريخ أخرى لسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، انظر، سبط بن الجوزي، مرجع سابق، 209/1 (حا: 10)، وابن الأثير، الكامل 274/10.
- (30) الشارترى، مرجع سابق، ص58.
- (31) الكامل 275/10.
- (32) سبط، المرأة 209/1.
- (33) وليم الصوري، مرجع سابق، ص226/1، الجستا، ص80 وما بعدها، الشارترى، مرجع سابق، ص58 وما بعدها.
- (34) س. رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، 253/1.
- (35) ابن الأثير، الكامل 276/10، تذكر بعض المصادر مشاركة رضوان صاحب حلب، انظر مرآة الزمان 310/1، ومن المعروف أنه لم يكن على علاقة حسنة مع ياغي سيان.
- (36) نفس المصدر، وانظر مرآة الزمان 310/1.
- (37) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص221.
- (38) أعمال الفرنجة، ص80.
- (39) الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص61.
- (40) انظر وليم الصوري، المرجع السابق، ص339.
- (41) الشارترى، المرجع السابق، ص60.

(42) الجستا، ص75-76.

(43) نفس المصدر.

(44) انظر كلودكاهن، مرجع سابق، ص372.

(45) الجستا، ص71.

(46) ابن العديم، زبدة الحلب، ص350.

(47) ابن الأثير، الكامل 276/10.

### المصادر والمراجع

ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (555-630/1160-1232م) الكامل في التاريخ، دار صادر - بيروت.

-التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية(الموصل) تحقيق احمد عبد القادر الطليمات ،دار الكتب الحديثه القايره،1963

ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت660هـ/ زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له: د. سهيل زكار، دار الكتاب العربي 1418هـ/1997م.

ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (470-555هـ/1077-1160) تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر 1403هـ/1983م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (813-874هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت.

أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1985م.

بول مركلي، الصهيونية المسيحية، ترجمة فاضل حتكر، شركة قدمس للنشر والتوزيع، بيروت 2002م.



- توفيق الطويل، قصة الكفاح بين روما وقرطاجة، مكتبة مصر، القاهرة، 1955م.
- جون كوتنتو، الحضارة الفينيقية، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1948م.
- الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية.
- دومنيك بوديس، الصليبيون في الشرق، ريمون المشرقي، ترجمة زياد أنطوان الهاشم، المكتبة الشرقية، د.ت.
- الرواندي، محمد بن علي بن سليمان، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، نقله إلى العربية، إبراهيم أمية الشواربي، وعبد النعيم محمد حسنين، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، 1379هـ/1960م.
- ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة عدد (96).
- س. رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، نقلة إلى العربية، السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1981م. الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997م.
- سبط بن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي (581-654هـ) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة 1407هـ/1987م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت 1976م.
- عماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني، دولة آل سلجوق، اختصار الشيخ الإمام الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1400هـ/1980م.
- فيصل علي الحربي، الفينيقيون في ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر، سرت 1996م.

قرطاجة، كيف ضاع التاريخ البشري، مجلة العصور الجديدة، السنة الأولى، العدد التاسع، القاهرة، مايو 2002م.

كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر 1995م.  
مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة (الجستا)، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي.

نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، سورية، دار المعارف، مصر 1966م.  
ه.ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز جاويد مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1956م.

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1991م.  
ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت.